

التصوف في الثقافة العربية الإسلامية

الباحثة مجنبي أم الخير - جامعة سيدي بلعباس -

كلية الآداب والعلوم والفنون

الملخص:

إن معالجة أي مظهر من مظاهر النشاط الإنساني يستدعي بالضرورة إمعان النظر في العمق الداخلي له ، فأي تجربة إنسانية تكون وليدة دوافع داخلية تتطور في الأفق أثناء اصطدامها وتضاربها بنظيرتها الخارجية ، فتأثر التصوف الإسلامي بتصوف أجنبي كان بعد نشأته الإسلامية المحضة، وفي مراحل متأخرة.

احتدم الجدل حول ما إذا كانت الصوفية إسلامية الأصل، أم أن حضورها في الدين الإسلامي كان نتيجة لتغذية أجنبية من خلال تجارب صوفية احتوتها ديانات سابقة لها ، أو حملتها أفكار فلسفية قديمة.

ولعل رواد الحركة الإشتراكية هم أول من شكك في أصولية التصوف الإسلامية، فوجد المشرق السويدي تور أندري يرى أن الزهد في الإسلام لا يعد أن يكون نقلا عن الزهد في المسيحية، فيقول: "الزاهد المسلم شأنه في ذلك شأن الزاهد النصراني، يتفاخر في الحالات العامة بإفراط ويتباهى بإسراف، لأنه حقق انتصارات وأعمال بطولية في صراعه مع الجنس والشهوات الأخرى¹ فهو بهذا جعل الزهد المسيحي علة لوجود الزهد الإسلامي . وأن مجمل الأفكار الصوفية مسيحية المنشأ كتمثيل "الفقر عن الغنى واحتقار الجنس ، والميل إلى تعذيب الجسد وترديد أوراد وأذكار خاصة خارج النص القرآني، وظهور مفهوم الولي الصوفي (المسلم المثالي) الذي يقابل لفظ (القديس في المسيحية)"².

وفيما يخص اعتماد المتصوف على الصوف في لباسه فهي ميزة مسيحية الأصل ، كان المسيح عيسى عليه السلام سابقا إليها ، ولم تقف التيارات الإشتراكية عند صبغ التصوف الإسلامي بلون مسيحي فحسب، بل تعدت هذا باعتماد أفكار أفلاطون الصوفية، وكذا المدرسة الأفلاطونية المحدثة مهذا للصوفية الإسلامية ، وذلك نظرا لإعجاب المسلمين بتجربة أفلاطون الصوفية، وتأثرهم الكبير بنظريته الخاصة "بهبوط النفس من الملأ الأعلى ورغبتها الذائبة في العودة إليه بقمع الشهوات وتحقير الجسد وإدمان التأمل والتفكير"³ وكذلك نجد المستشرق "ديلاس أوليري" يرى أن العرب المسلمين تأثروا بالأفلاطونية الجديدة قبل الفتح الإسلامي للشام وقبل عصر الترجمة، فهذا التأثير كان موجودا منذ زمن الجاهلية عن طريق القوافل التجارية والاحتكاك الحضاري بين الشام والحجاز"⁴ وأعجبوا بمقولة أفلوطين المشهورة "اعرف نفسك بنفسك" فأضافوا إليها " من عرف نفسه عرف ربه"⁵ وفي ذات السياق يؤكد نيكلسون جازما فيقول : الأفلاطونية الحديثة قد صبغت على الإسلام صبغة من العنصر الصوفي عينه الذي صبغت به المسيحية من قبل"⁶ كما يرجع نيكلسون حب الله إلى نسب اسكندراني وكان هذه المحبة السامية أخذ المسلم المتصوف تعاليمها من المدرسة الإسكندرانية فيقول: "وحب الصوفية لله في الإسلام والمسيحية قد انقلب إلى الخذاب وهما سبب الوقوع تحت تأثير "ديونيسوس" وغيره من كتاب الأفلاطونية الحديثة"⁷.

إلا أن المستشرقين لم يثبتوا على هذا الموقف ، ولعل نيكلسون المثال على ذلك فقد تراجع عن أرائه التي أعلنها سنة 1906م والتي يُنسب فيها التصوف الإسلامي إلى ثقافات أجنبية فيقول : نافيا لرأيه السابق " فلو أن المعجزة وقعت وانقطع الإسلام تماما عن كل صلة بالأديان والفلسفات الأجنبية ، لكان من المحتم أن يقوم فيه لون من التصوف،ذلك لأن فيه بذورها"⁸ أما ماسينيون فإنه يرى مصطلحات التصوف أربعة :

- 1- القرآن الكريم: وهو المصدر الرئيسي للمصطلحات الصوفية .
- 2- العلوم العربية الإسلامية: كالحديث والفقه وغيرها .
- 3- مصطلحات المتكلمين الأوائل.
- 4- اللغة العلمية: كاليونانية والفارسية وغيرها... وأصبحت لغة العلم والفلسفة ثم يشير في نهاية الأمر الى أن التصوف الإسلامي قد نشأ من صميم الإسلام نفسه على الأقل في القرون الثلاثة الأولى⁹ بل إن بعض المستشرقين يروا أنه لا صوفية من غير إسلام¹⁰.

وهناك من يذهب إلى رد فكرة أن التصوف الإسلامي إلى أصل بوذي هندي، وذلك بإتباع صوفية الإسلام بعض عادات النساك البوذية كاستخدام المسابح¹¹ وحلقات الذكر التي هي من أصل هندي¹² على الأغلب يمكن اعتبار التأثير الهندي تأثير ضعيف ومحدود خاصة "لدى متصوفة الجليل الأول، حيث لم تصل الفتوحات إلى أبعد من نهر السند ، وكان المسلمون عامة ينظرون إلى الهنود نظرة ريبة باعتبارهم وثنيين"¹³.

وليس من المدهش أنه هناك من يعتبر التصوف الإسلامي ذا مصدر صيني . فالمعروف أن العرب قبل الإسلام وبعده كانوا وطيدوا الصلة مع الصينيين، هذه الصلة اتخذت طابعا تجاريا في الأول لتتخطى هذا باتخاذها طابعا روحيا تجسد من خلال تأثر العرب بطريقة التصوف الصينية المعروفة بالتأويه ،التي تتوافق أفكارها ظاهريا وأفكار التصوف الإسلامي، ولكن غياب الأدلة التاريخية الدالة على اتصال العرب المسلمين بالصينيين، وحضورهم الباهت في كتب النقاد والمتصوفة إن دل على شيء إنما يدل على سطحية التأثير الصيني .

بعد هذا السرد يلتزم القول هنا أن معالجة أي مظهر من مظاهر النشاط الإنساني يستدعي بالضرورة إمعان النظر في العمق الداخلي له،فأي تجربة إنسانية تكون وليدة دوافع داخلية تتطور في الأفق أثناء اصطدامها وتضاربها بنظيراتها

الخارجية، فتأثر التصوف الإسلامي بتصوف أجنبي كان بعد نشأته الإسلامية المحضة، وفي مراحل متأخرة. فالمؤثرات الأجنبية لم تزد التصوف الإسلامي سوى أنها أضافت في دائرته الفكرية أفكارا ومصطلحات جديدة وسعت بُعده المعرفي وطورت نظريته التي اقتصرَت في بادئ الأمر على الزهد لتتعدى بذلك أسرار الوجود وخبايا النفس ومن المعيب أن تُعتبر المعرفة الصوفية الإسلامية ترجمة لمعرفة صوفية أجنبية.

ولعل الأسبقية الزمنية لها دورها الفعال في كل هذا، فلو كان الإسلام على سبيل المثال فقط - سابقا لتلك المصادر الأجنبية التي سبقته، فستكون له صوفيته طبعا.

إن أساس الصوفية الزهد والتأمل ، فقد كان النبي العربي محمد عليه السلام ذا اتجاه تأملي زهدي قبل أن يوحى إليه وتبعه في هذا الصحابة وخلفاؤه الزهاد المتأملين.

إن التأمل في الكون يشكل قاعدة التصوف من أجل الوصول إلى حقيقة الوجود الإله الأوحِد ، وهذا ما جاء في الآيات الكريمة التالية : أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) ".¹⁴
"أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) " ¹⁵.

والأصول الإسلامية الكامنة في الصوفية تعبر عنها آيات قرآنية تحمل في طياتها تعبيرا واضحا على وجود الله وأنه الباقي الخالد ، قال تعالى: "وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) " ¹⁶ وقال أيضا: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) " ¹⁷.

والممارسة الصوفية بطابعها الروحي الراقي نلمسها من خلال الآيات القرآنية - ففي سورة النور قال تعالى: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) " ¹⁸ ، وقال أيضا: " فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38) " ¹⁹ .

وقفت الصوفية موقف ازدراء من الحياة وملذاتها، وعديد الآيات تدل على ذلك، قال تعالى: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَبَائِهِ ثُمَّ يَهَيِجُ فِتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) " ²⁰ .

فالحياة الدنيا تبدأ بظاهرها المغربي بملذات الحياة لينقلب هذا النعيم إلى نقيم، وتنتهي الدنيا بحجيم، فالآخرة هي الأولى والأفضل

ودعا بدوره الإسلام إلى السفر والتجوال من أجل كشف حقيقة الخلق ، والوصول إلى المعرفة الحقة، هذا ما نادى به الصوفية بدورها، ونجد له تعبيرا من خلال هذا النص القرآني :

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) " ²¹ .

يمثل العكوف على العبادة، الانقطاع إلى الله تعالى أرقى وأهم أركان التصوف الإسلامي، لأن الخلق وجد لغرض العبادة لا غير عملاً بقوله تعالى "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (56)^{2 2}.

إن الإكثار من العبادة يؤدي إلى الانقطاع إلى الله تعالى، وهذا هو الهدف الأسمى للمتصوف المسلم ليتصل بالحق يقول تعالى: "وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي" (41)^{2 3}.

هذا الانقطاع يعقبه الحب الإلهي الذي يناله الصوفي بعد الرقي الروحي، عن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قال عز وجل: أنا عند ظن العبد بي، أنا معه حيث يذكرني، والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة"، ومن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذرعا، ومن تقرب إلي ذرعا، تقربت إليه باعا، وإذا أقبل إلي يمشي، أقبلت إليه أهول"^{2 4}.

وفي هذا المقام يقول الله تعالى في حديث قدسي: "ما زال عبيدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، وإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها"^{2 5}.

ونجد تعبيراً عن هذا من خلال هذه الآية الكريمة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتُدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ"^{2 6}.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أسوة الصوفية، ونبراسا يستضاء به، فقد حيا حياة روحية راقية قبل بعثته ليبلغ بها النور الإلهي من خلال الوحي الرباني، الذي أنزل عليه، ليكون بهذا زهده اللبنة الأولى التي بنى عليها الصرح الصوفي، فالأحاديث النبوية المعبرة عن الزهد عديدة، فيقول عليه الصلاة والسلام "إزهد في الدنيا يحبك الله، وإزهد فيما أيدي الناس يحبك الناس" ويقول أيضا إذا رأيت من يزهد في الناس فادنوا منه، فإنه يلقي الحكمة^{2 7}.

وقال: "الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر" ²⁸.

ويروى أنه قال بعد فتح مكة: "انتقلنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله. قال: جهاد النفس" ²⁹.

هذا الحديث يستشهد به الصوفية كثيرا .

إنه لمن الصعب أن ننسب التصوف إلى مصدر وحيد ، فالصوفية باعتبارها حركة روحية عريقة لم تكن وليدة مجتمع ما، ولا ثقافة خاصة بشعب ما، ولم ترتبط بدين ما، ولم تأت بها أفكار مذهب ما، وإنما توافق بين مختلف المتصوفة في الوصول إلى غاية وهدف واحد و أسمى يعبر عنه التشابه المسنون في الأساليب، فلكل دين وتفكير صوفيته الخاصة به.

الهوامش:

¹ - تور أندري، التصوف الإسلامي، تر: علنان عباس علي، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط1، 2003، ص 21.

² - سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 67.

³ - سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، ص 73.

⁴ - ينظر، المرجع نفسه، ص 71.

⁵ - المرجع نفسه، ص ص 73-74.

⁶ - رينولد نيكلسون، الصوفية في الإسلام، تر: نور الدين شريعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2002، ص 25.

⁷ - المرجع نفسه، ص 109.

⁸ - المرجع نفسه، ص 31.

⁹ - أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008، ص 23.

¹⁰ - المرجع نفسه، ص 24.

- 11 - إبراهيم التركي، فلسفة الموت عند الصوفية، دار الوفاء للنشر والطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2003، ص 19.
- 12 - عادل محمود بدر، جوزيبي سكاتولين، قراءات في التصوف الإسلامي من النص إلى التأويل، دار مصر المحروسة، القاهرة، د.ط، 2010، ص 22.
- 13 - سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، ص 80.
- 14 - سورة الغاشية، الآية 17-18.
- 15 - سورة النحل، الآية 79-80.
- 16 - سورة البقرة، الآية 115.
- 17 - سورة الحديد، الآية 3.
- 18 - سورة النور، الآية 41-42.
- 19 - سورة النور، الآية 36-37.
- 20 - سورة الحديد، الآية 20.
- 21 - سورة العنكبوت، الآية 20.
- 22 - سورة الداريات، الآية 56.
- 23 - سورة طه، الآية 41.
- 24 - مسلم بن الحجاج النيسوري، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت، ص 2102.
- 25 - عادل محمد بدر، قراءات في التصوف الإسلامي، ص 27.
- 26 - المائدة، الآية 54.
- 27 - رواه ابن ماجه، وصححه الألباني، نقلا عن إبراهيم محمد تركي، التصوف الإسلامي أصوله وتطوراته، دار الوفاء للنشر والطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2008، ص 92.
- 28 - بن الحجاج النيسوري، صحيح مسلم، ج 4، ص 2272.
- 29 - رواه البيهقي بسند ضعيف نقلا عن إبراهيم محمد تركي، التصوف الإسلامي أصوله وتطوراته، ص 92.